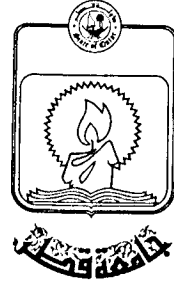


جامعة قطر
ادارة المكتبات الجامعية
مكتبة الدوريات



مكتبة البنين
شعبة الدوريات

مجلة

مركز بحوث
الاسلاميات

العدد السادس

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ / ١٩٩٣ م

**تراجم المحدثات في
العصر المملوكي
« دراسة أولية في المصادر »**

بـقـلـم

الدكتورة / أمينة محمد جمال الدين
المدرس بكلية البنات - جامعة عين شمس

عكفت بضع سنين على دراسة موضوع من موضوعات الأدب العربي في العصر المملوكي، كان عنوانه «النويرى وكتابه نهاية الأرب في فنون الأدب»، وقد تناولت الدراسة فيما تناولت الحياة العلمية والأدبية الزاهرة التي عاشها ذلك الأديب الكبير (ولد سنة ٦٦٧هـ وتوفي سنة ٧٣٣هـ) الذي استطاع - برغم اشتغاله بالأموال الديوانية ومباشرة الأعمال الإدارية في كل من مصر والشام - أن يخرج لنا موسوعته الضخمة، التي اشتملت على أكثر من ثلاثين جزءاً ضمّت كل فروع العلم والمعرفة التي ينبغي على الأديب أن يلمّ بها، بل ويتقنها قبل أن يتعانى الأدب.

ولقد بدا النويرى في كثير من الموضوعات التي تطرق إليها في موسوعته متأثراً أوضح التأثير وأعمقه بمنهج علم الحديث الشريف. ^(١) ومن خلال استقراي لسيرة النويرى - التي لا نعرف عنها إلا مقتطفات يسيرة كتب بعضها بنفسه في مواضع متفرقة من كتابه، وذكر بعضها الآخر معاصروه - نجد أن النويرى قد بدأ العناية بعلم الحديث منذ فترة مبكرة من حياته. واستمرت هذه العناية وتواصلت برغم انشغاله بالوظائف الديوانية، فكان يحضر مجالس السماع التي كان يعقدها كبار الحفاظ في عصره، كالشيخ شرف الدين الدمياطي (توفي سنة ٧٠٥هـ) وابن دقيق العيد (ت: ٧٠٢هـ).

ولقد راغني أن من بين شيوخ النويرى في علم الحديث الشريف واحدة من المحدثات هي: الشيخة أم محمد وزيرة، المعروفة بست الوزراء (٦٢٤ - ٧١٦هـ) التي يقول عنها إنها «روت صحيح البخاري عن ابن الزبيرى، وسمعتُ عليها بالقاهرة سنة خمس عشرة وسبعائة». ^(٢) وقد بذلت الشيخة جهداً موفوراً في رواية صحيح البخاري في السنة المذكورة (٧١٥) حيث سمع الناس عليها وعلى الشيخ (على الحجار) «بقلعة الجبل والقاهرة وظاهرها ومصر خمس مرّات ... الخ» ^(٣)، مما يدل على نشاط موفور، وهمة عالية بذلتها ست الوزراء في تعليم الحديث الشريف، وينبّه إلى أن المرأة قد اقتحمت مجالاً طالما

(١) راجع كتاب «النويرى وكتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، مصادره الأدبية وآراؤه النقدية»، لكاتبه هذه السطور، طبع مصر ١٩٨٤م، دار ثابت للنشر، ص ٨٤ وما بعدها.

(٢) النويرى: شهاب الدين، نهاية الأرب، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم (٥٤٩) معارف عامة، جزء ٣٠، ورقة (١٠٠).

(٣) أيضاً.

حسبتُ أنه كان مقصوراً على الرجال وحدهم، لا سيما في ذلك العصر الذي عدّه مؤرخو الثقافة العربية عصر اضطراب سياسي وتخلّف ثقافي، قد انسحبت المرأة فيه من الحياة العامة للأمم، ولم يعد لها ذلك الدور العلمي والثقافي الذي قامت به منذ صدر الإسلام.

كما راعني أن أجد شخصية أخرى من كبار شخصيات ذلك العصر الزاخر بالعلماء الأفاضل، وهو قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت ٧٧١) ينقل خبرين في كتابه الرائع: «معيد النعم ومبيد النقم» عن ثلاث من محدّثات عصره، يقول في الخبر الأول منهما في معرض التنديد بالعلماء الذين يترددون إلى أبواب السلاطين:

«وكتب إلى أحمد بن علي الحنبلي وزينب بنت الكمال وفاطمة بنت أبي عمر عن ... قال:

أنشدنا القاضي أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني لنفسه:

يَقُولُونَ لِي : فَيْكَ انْقِبَاضٌ ، وَاِنَّمَا	رَأَوْا رِجَالًا عَنِ مَوْقِفِ الذَّلِّ أَحْجَمًا
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُمْ	وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أَكْرَمًا
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحٍ لِي يَسْتَفْزِنِي	وَلَا كُلُّ مَنْ لَأَقَيْتُ أَرْضَاهُ مُنْعَمًا

... الأبيات» (١).

كما ينقل - في نفس الفصل - خبراً بالسماع عن محدّثة معاصرة أخرى، فيقول: «أخبرتنا شقراء بنت يعقوب بن إسماعيل بن عبدالله بن عمر بن قاضي اليمن قراءتها عليها وأنا أسمع قالت: أخبرنا ... يقول: سمعت عبدالله بن المبارك يقول وقد بلغه عن أبي عليّة - رحمها الله - أنه قد ولي الصدقات بالبصرة، فكتب إليه بهذه الأبيات:

يَا جَاعِلَ الْعِلْمِ لَهُ بَازِيًا	يَصْطَادُ أَمْوَالَ الْمَسَاكِينِ
اِحْتَلَّتْ لِلدُّنْيَا وَلذَاتِهَا	بِحِيلَةٍ تَذْهَبُ بِالدِّينِ

... الأبيات.

(١) معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرين، مصر، ١٩٤٨ م ص ٦٩ - ٧٠، وقد أورد السبكي هذا الخبر كله بنفس النص في كتابه: طبقات الشافعية الكبرى، مصر، ١٣٢٤ هـ، ٢: ٣٠٨. وزينب بنت الكمال (ت ٧٤٠) وفاطمة بنت أبي بكر (ت ٧٤٧) من أشهر محدّثات العصر، انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (نشر حسام المقدسي، سنة ١٣٥٠) ٦: ١٢٦، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (طبعة دار المعارف العثمانية) ٣: ٢٥.

فلما بلغت هذه الأبيات ابن عليّة بكى واستعفى، وأنشأ يقول :
أفٌ لدُنْيَا أَبَتْ تُوتَاتِنِي إلا بنقصِ عُرَى دِينِي

... الخ . (٢)

وواضح أن هذين الخبرين المتفرقين اللذين نقلهما السبكي عن بعض محدثات عصره إنما هما - في حقيقة الأمر - رواية أدبية موثقة أفضل ما يكون التوثيق، الأمر الذي يدل على أن صلة المحدثات بالأدب لم تكن مقصورة على توجيه أدباء العصر وتلقينهم حديث رسول الله (ﷺ) ويا لها من مهمة جليلة في ذاتها، وإنما اتسعت هذه الصلة حتى شملت فيما شملت عنايتهن بالأدب نفسه، وبتوثيقه. وربما أدى بنا التعمق في بحث الظاهرة إلى الوقوف على أنماط أخرى من العلاقات بين هؤلاء المحدثات والأدب في العصر المملوكي.

وقد دفعني ذلك كله إلى دراسة ظاهرة كثرة المحدثات وتبين أثرهن في الحياة الأدبية في ذلك العصر. ولم أكن أقصد - بالطبع - أن أتطرق إلى التفاصيل الدقيقة المتعلقة بعلم الحديث الشريف، وماأضافته هؤلاء المحدثات إلى جهود السابقين، فذلك ما لا أطيعه ومالست مؤهلة له بالقدر الكافي، ولاسبيل لي إليه، وإنما هو إلى المتخصصين في العلم الشريف، وحسبي أن أدرس الخطوط الكبرى للظاهرة بمنهج علمي موثق، وأبين دلالتها الحضارية، ومغزاها الثقافي، وأثرها من بعد ذلك كله على أدب العصر.

وكان لا بد أولاً من فحص المصادر التي تعين الباحث على التعرف على أعمال هؤلاء المحدثات، والدور الذي قمن به في نشر العلم والمعرفة، وما كان لهذا الدور من أثر في الحياة الأدبية في ذلك العصر، لما هو ثابت مقرر من تأثير الأدب بثقافة الزمن الذي يعيش فيه، ولما هو واضح من صلة هؤلاء المحدثات بأدباء العصر واهتمامهن برواية الأشعار وتوثيقها كما أسلفنا.

(٢) معيد النعم، ص ٧٢ - ٧٣. وابن عليّة كان من كبار علماء البصرة، توفي سنة ١٨١ هـ.

* القرن السابع واتساع نشاط المحدثات :

وإن نظرة فاحصة في كتب التاريخ العام التي عنيت بوفيات الأعلام بقدر ما عنيت بالأحداث - ككتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (المتوفي سنة ٨٧٤) والبداية والنهاية لابن كثير (المتوفي سنة ٧٧٤)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (المتوفي سنة ١٠٨٩) - لكفيلة بأن تبين أن القرن السابع - وهو القرن الذي علا منذ منتصفه نجم المماليك في مصر والشام بعد أن استقر الحكم للسلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٥٨هـ - قد شهد بداية حركة نشاط واسعة ومتزايدة للنساء من المحدثات في كل من مصر والشام. ولا ريب أن الحركة إنما كانت صدى للازدهار الذي شهدته تلك الديار في سائر العلوم والمعارف والفنون في تلك الحقبة.

وإذا نحن أحصينا ما أورده ابن العماد من تراجم المحدثات في القرن السابع، نجدها قد بلغت إحدى وعشرين ترجمة لمحدثات مارس أغلبهن نشاطه في الديار المصرية والشامية، وأخذ العدد في التزايد باطراد، فبلغ - عند ابن العماد مثلاً - نحو سبع وثلاثين محدثة في القرن الثامن.

على أن كتب التاريخ العام - التي لا تُعنى إلا بالملاحم العامة للصورة الحضارية للعصر - قد أشارت ضمناً إلى هذا العدد الكبير من المحدثات، فلا بد إذن أن تكون بالمكتبات مصادر متخصصة تتوسع في الإشارة إلى الظاهرة وتعمق تفاصيلها، لاسيما بعد أن لاحظت أن كتب الوفيات وطبقات المحدثين لاتكاد تضيف شيئاً يذكر على ماورد بكتب التاريخ العام فيما يتعلق بتراجم النساء خاصة.

ويختص هذا المقال بالبحث في تلك المصادر، وتتبع المظان التي يمكن من خلالها - بعد ذلك - التعمق في درس الظاهرة. وتعدّ هذه الخطوة مقدمة أولية لا محيد عنها للوصول إلى نتائج يُطمأن إلى صحتها. لاسيما أن بحث هذه الظاهرة لم يُسبق إليه في حدود علمنا. نعم، قد نجد مادته العُقل في الكثير من المصادر العامة وكتب الوفيات، كما أشرنا، لكن إخراج هذه المادة من حالة السرد والإرسال التي تغلب على تلك المصادر العامة والعمل

على ربطها بالحركة العلمية والثقافية للعصر يستوجب الرجوع إلى فهارس المكتبات والفحص عن مصادر أشد دقة وأكثر شمولاً، كما يستوجب الموازنة بين ما وقفنا عليه من مصادر، لإدراك ما يتميز به بعضها على بعض في التفاصيل التي قد تعنى بأنماط من النشاط تصلح أن تكون مؤشراً إيجابياً يعين الباحث على تكوين صورة شاملة للقضية موضوع البحث.

وعندي أنه يلزم من يبحث في تراجم طبقات المحدثين - لتبين أثرهم في الحياة العلمية والأدبية في عصر من العصور - أن يختار مصادر بحثه بعناية فائقة لكي يستوثق من صحة ماجاء بالتراجم ويتأكد من دقتها، فهذا الالتزام أمر يكافيء منهج الشيوخ والشيخات في رعايتهم لأقصى درجات الدقة والتحرى للستد، وحرصهم على ألا يرقى إلى منابعهم أدنى شك أو أقل جرح.

ومن ثم أصبح من حق المحدثات علينا - وقد شمرنا عن ساعد الجهد للكشف عن دورهن في الحياة الأدبية والثقافية في ذلك العصر - أن نتوقف ملياً عند المصادر، لنختار ما كان منها أكثر دقة وأكمل استيعاباً.

* * *

* ابن حجر العسقلاني وعنايته بأخبار النساء :

وبالبحث في فهارس المكتبات وقفت على مخطوط بدار الكتب المصرية ألفه ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢) بعنوان: «معجم الشیخة مريم»^(١)، ويعني بها شيخته «مريم بنت أحمد بن إبراهيم الأذري دمشقية»^(٢). وفي هذا المعجم - يتكون من ثلاثة عشر جزءاً في مجلد واحد، والذي سوّده ابن حجر بنفسه - عرض لشيخوخ مريم في السماع والإجازة، وهم كثيرون للغاية، ذكر من بينهن إحدى وعشرين شيخه، دفعة واحدة، كنّ

(١) مخطوط مصور بطريقة الميكروفيلم، برقم ١٤٢١ حديث.

(٢) ولدت سنة ٧١٩، وتوفيت سنة ٨٠٢، وفي إشارة لها في كتابه «الدرر الكامنة» (١: ٢٤٠) قال ابن حجر: «سمعت منها الكثير»، ونقل

عنه السخاوي في الضوء اللامع (١٢: ١٢٤) قوله: «خرّجت لها معجماً في مجلد».

يعشن في وقت واحد تقريباً، سمعت^(١) منهن «مريم» وأجزن لها أن تروى الحديث أو الخبر^(٢) عنهن.

ولقد لفتني ذلك المعجم إلى خصيصة تميز بها عدد كبير من مؤلفات ابن حجر العسقلاني، وهي عناية ابن حجر بتراجم النساء، وبالدور الذي مارسنه إلى جانب الرجال في العصر الذي يؤرخ للنشاط البشري فيه.

وتبدو هذه العناية بدرجة كافية في أبرز مؤلفات ابن حجر وأكثرها شهرة وتداولاً، فلقد خصّ تراجم النساء بجزء من الأجزاء الأربعة التي تشتمل عليها موسوعته الكبرى «الإصابة في تمييز الصحابة»، وأورد في هذا الجزء (الجزء الرابع من الموسوعة)^(٣) تراجم النساء من الصحابيات الجليلات، وهي تراجم لا تقلّ في دقتها وتفصيلها عن تراجم الصحابة أنفسهم، رضوان الله عليهم أجمعين.

وفي كتابه «تقريب التهذيب»^(٤) عرض ابن حجر لأكثر من ثلاثمائة من النسوة المحدثات في عصر الصحابة والتابعين ومن تبعهن من رواة الكتب الستة، فكان بذلك من أكثر المؤلفين عناية بالدور الكبير الذي قامت به النساء في الحركة العلمية والثقافية في صدر الإسلام.

ولست أزعم أن ابن حجر كان أول من أفرد في مؤلفاته قسماً خاصاً للصحابيات، بل هو يتبع في ذلك تقليداً كان قد استقرّ في فن التراجم منذ القرن الثالث، بعد أن ألف ابن سعد كاتب الواقدي (ت ٢٣٠هـ) كتابه الكبير: الطبقات الكبرى، وذيله بجزء خاص للنساء.^(٥) وما لبث كبار المؤلفين في تراجم الصحابة أن اعتمدوا هذا المنهج وساروا

(١) السماع عند المحدثين هو «أن يحدث الراوى بحديث أو خبر، سواء كان ذلك التحديث شفاهاً من المصدر أو قراءة من كتاب». (الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، طبع مصر، ١٩٧٢م، ص ٤٥٠).

(٢) أما الإجازة فهي «إذن من الأستاذ لتلميذه أن يروى عنه مروياته أو مسموعاته أو بعضاً منها». (السيوطي، تدريب الراوى شرح تقريب النووي، تحقيق عبد الوهاب عبداللطيف، طبع مصر، ١٩٥٩م، ص ٢٥٦).

(٣) راجع طبعة مكتبة المنتبي ببغداد، ١٣٢٨هـ.

(٤) انظر: تقريب التهذيب، تحقيق محمد عوامة، نشر دار الرشيد بحلب، ١٤٠٦هـ.

(٥) هو الجزء الثامن من طبعة مطبعة بريل «ليدن» هولندا، سنة ١٣٢١هـ، بتحقيق كارل بروكلمان.

عليه، وقد بدا هذا واضحاً في أمّهات الكتب التي ألفت في هذا الباب ككتاب «الاستيعاب» لابن عبدالبرّ القرطبي (ت ٤٦٣هـ)^(١)، وكتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لعز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ).^(٢)

ولا شك أن ما درج عليه ابن حجر من عناية بأخبار النساء - استجابة لذلك التقليد الراسخ في فن التراجم - قد جعله يلاحظ ظاهرة بدت واضحة للعيان في عصره وقبل عصره بقليل، ونعني بها ظاهرة كثرة المحدثات في الشام ومصر خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، ويحرص على تسجيلها بكل دقة ووضوح، من خلال تراجم النساء التي أثبتتها في كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، وفي معجمه المشار إليه، والذي خصصه لجمع تراجم شيوخ أستاذه مريم الأزرعية وشيخاتها.

(١) انظر: الاستيعاب لمعرفة الصحاب، تحقيق محمد على البجاوى، طبع مصر، ٤: ١٧٧٨ وما بعدها.

(٢) انظر: أسد الغابة، طبع مصر، ١٩٧٠م، الجزء السابع.

* الدرر الكامنة : منهجه ومميزاته :

يعدّ من أهم المصادر التي بين أيدينا - إن لم تكن أهمها على الإطلاق - في التعريف بمحدثات القرن الثامن، وفي الإشارة ضمناً إلى محدثات القرن السابع .
ولذلك كان يجدر بنا أن نتوقف ملياً عند هذا المصدر النادر ، والبحر الزاخر لاستخراج أهم الملامح التي تميّزت بها بعض درره الكامنة من النساء، والتأمل في منهجه في إجلاء سيرهن ومناقبهن، والموازنة بينه وبين ما هو متاح الآن من مصادر عربية عنيت بالموضوع نفسه .

وينبغي علينا بادئ ذي بدء أن نشير إلى أن كتاب الدرر الكامنة لا يشتمل على قسم خاص بتراجم النساء، وإنما تأتي هذه التراجم جنباً إلى جنب تراجم الرجال . وقد رُتبت التراجم كلها على حروف المعجم، وشملت تراجم عدد كبير من النساء اشتغل أكثرهن بعلم الحديث، بينما عني بعضهن بالفقه، وسلك البعض الآخر طريق التصوف والعرفان، كما شملت تراجم متفرقة لنساء تعانين الأدب أو احترفن الغناء، أو تزوجن سلاطين الممالك وقادتهم .

ولذلك فإنه عندما شرعت دائرة المعارف الإسلامية في «حيدر آباد الدكن» في تحقيق كتاب «الدرر الكامنة» بأجزائه الأربعة تمهيداً لطبعه ونشره، تنبّه المحققون إلى أن من أهم ميزات الكتاب، أنه «قد أتى فيه بتراجم كثيرة للنساء العالمات الفاضلات المحدثات، وذكر اشتغالهن بالتدريس وحبهن لعلوم الفقه والحديث، وشغفهن بالتأليف والتصنيف، حتي صار هذا الكتاب عمدة في أحوال نساء هذا القرن» .^(١)

ولو أننا عمدنا إلى الموازنة السريعة بين الطريقة التي كتب بها ابن حجر تراجم النساء في الدرر الكامنة وطرائق غيره من كبار كتّاب التراجم والوفيات، ممن عاشوا في العصر المملوكي وسبقوا ابن حجر في التأليف في هذا الفن، كالقاضي ابن خلكان (ت ٦٨١) في

(١) الدرر الكامنة ، ٤ : ٥٠٣ .

«وفيات الأعيان»^(١)، وابن شاعر الكتبي (ت ٧٦٤) في «وفيات الوفيات»^(٢)، والإدقوى (ت ٧٤٨) في «الطالع السعيد»^(٣)، لوجدنا ابن حجر يرجح هؤلاء جميعاً في العناية بتراجم النساء بعمامة والمحدثات بخاصة، وتقصي أخبارهن والتعريف بأحوالهن، وبيان أسماء شيوخهن، وما تلقينه على هؤلاء الشيوخ من أبواب العلم الشريف، وما اختصت بعضهن بروايته، وأبرز من تتلمذ على أيديهن من الرجال والنساء الأعلام، والمناقب التي تحلّت بها هؤلاء الشيوخ المحدثات.

وكان من الواضح في إثبات ابن حجر لتراجم نساء المائة الثامنة في كتابه الدرر الكامنة أنه إنما يتتبع نهجاً لا يسير فيه على نهج مؤلفي كتب التواريخ، التي تعتمد في الغالب الأعم على تذييل تواريخ السنين بنبذ تتضمن ترجمة مختصرة لوفيات الأعلام في كل سنة، على غرار ما فعل ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤) في «النجوم الزاهرة»^(٤)، ولا يتقيد فيه بطريقة كُتّاب الطبقات التي لا تعنى إلا بالمشاهير، ولا يهتمها من أخبارهم لإتحديد تواريخ ميلادهم ووفياتهم. ولعل أظهر مثال لأصحاب هذه الطريقة «الحافظ شمس الدين الذهبي» في كتابه «تذكرة الحفاظ»^(٥).

وإنما سلك ابن حجر في كتابه «الدرر الكامنة» مسلكاً مختلفاً حين أبدى من جانبه حرصاً على إيراد تراجم النساء وأخبارهن في القرن الثامن، وبذل كل طاقته لجمع ما تفرق من هذه الأخبار.

(١) شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨ م.
(٢) صلاح الدين محمد بن شاعر الكتبي الدمشقي، وفيات الوفيات، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحمد، مصر، ١٩٥١ م.
(٣) كمال الدين جعفر بن ثعلب الإدقوى، تحقيق سعد محمد حسن، مصر، ١٩٦٦ م.
(٤) يترجم ابن تغرى بردى لواحدة من كبار المحدثات في النجوم الزاهرة، في حوادث سنة ٧٢٣ هـ فيقول: «وتوفيت المسندة المعمرة أم محمد زينب بنت أحمد بن عمر بن أبي بكر بن شكر، في ذي الحجة بالقدس عن أربع وتسعين سنة، وكانت رُحلةً زمانها، رُحل إليها من الأقطار، وصارت مسندة عصرها» (النجوم الزاهرة، ٩: ٢٥٨).
(٥) يذكر الذهبي أخبار واحدة من كبار المحدثات في عصرها على هذا النحو: «قلت وفيها (يعني في سنة ٥٧٥ هـ) توفي ... ومسندة بغداد أم عتب تجمي الوهبانية» (تذكرة الحفاظ ٤: ١٣٦٦). وفي وفيات سنة ٧٠٨ هـ يقول: «وفيها توفي ... والمعمرة المسندة أم عبدالله فاطمة بنت سليمان بن عبدالكريم الأنصاري المقرئ بدمشق وقد أشرفت على التسعين ... وأم عمر خديجة بنت أحمد ابن أبي جرادة بحياة عن بضع وثمانين سنة». (تذكرة الحفاظ، ٤: ١٤٨٥). والعجيب أن ابن حجر العسقلاني نفسه سار على طريقة كُتّاب الوفيات في كتابه في التاريخ «إنباء الغمر بأبناء العمر». راجع: طبعة دار المعارف العشانية تصوير دار الكتب العلمية بيروت.

* منهج متميز في تراجم المحدثات :

ولكن كيف كتب ابن حجر تراجم النساء في «الدرر الكامنة»؟ لتأمل الآن بعض الأمثلة لنقف على المنهج الذي سلكه ابن حجر في جمع أكبر قدر من أخبار المحدثات، يقول مثلاً: «حبيبة بنت الزين عبدالرحمن بن أبي بكر محمد بن إبراهيم، ولدت سنة ٥٤هـ، حضرت على اليلداني، وخطيب مردا، وأسمعت من إبراهيم بن خليل وأحمد بن عبدالدائم، وأجاز لها السبط وفضل الله ابن الجيلي في آخرين من بغداد. وحدثت بالكثير خصوصاً بالإجازة. قال الذهبي: سمعت منها، وماتت في شعبان سنة ٧٣٣هـ، ولم تتزوج».^(١)

فهو يورد الاسم كاملاً، ثم يتبعه بتاريخ الميلاد، ثم يبين ما حظيت به الشيخة من إعداد توجيهي أولى في علم الحديث، ومن حضرت عليه في صغرها من المحدثين. ويدلف بعد ذلك إلى المرحلة التالية - مرحلة التكوين العلمي - فيذكر مشايخها بالسماع، ثم مشايخها بالإجازة. وينتقل بعد ذلك إلى بيان فعاليتها، فيذكر ما كان لها من نشاط في خدمة العلم الشريف، وهل كان أغلب نشاطها تعليمياً مباشراً بالسماع أو إجازة بالمكاتبة.

ويعرف بعد ذلك بأهم تلاميذها، والمصدر الذي اعتمد عليه في استقاء أخبارها. ويجدد وفاتها بكل دقة. وهو يستدرك - قبل أن يفرغ من الترجمة - فيأتي على خبر يتعلق بحياتها الخاصة.

ولقد كان هذا دأب ابن حجر العسقلاني في تراجم الرجال في الكتاب نفسه، غير أن من الواضح أنه كان يفتقر في تراجم النساء إلى كثير من الأخبار الرئيسية التي لا تقوم الترجمة إلا بها، فلا يعثر أحياناً على تاريخ مولد المحدثة أو تاريخ وفاتها، أو لا يعثر على التاريخين معاً، فيترك مكانها بياضاً، ويكتفي بذكر ما استطاع جمعه من الأخبار، على أمل أن تسعفه بعض المصادر باستيفاء هذا النقص قبل إتمام تأليف الكتاب. وتظل هذه المواضع ناقصة بعد إتمام التأليف، لكن المؤلف لا يعمد إلى محو ما أثبتته من أخبار تلك المحدثة.

(٢) الدرر الكامنة، ٢: ٥.

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها مثلاً: «عائشة بنت عبدالله بن عبدالمؤمن بن أبي فتح الصوري، ولدت سنة ... وأسمعت على خطيب مرداء، وحدثت، وماتت ...»^(١)، «جويرية بنت عبداللطيف عبدالغني ابن تيمية، تكنى أم خلف زين النساء، زوج أبي بكر الرحبي، ذكرها أبو بكر الكويك في مشيخته». ^(٢) «عائشة بنت إسماعيل ... سمعت من الحجار، وسمع منها البرهان الحلبي المحدث في رحلته». ^(٣)

وكأني بابن حجر وهو يريد أن يؤرخ لظاهرة كثرة المحدثات في عصره وقبل عصره بقليل، يكتبني - أحياناً - بأقل القليل من الأخبار لكي يبين أن محدثة ما كانت هناك.

ولذلك وردت في الدرر الكامنة، وكذلك معجم مريم، أسماء لمحدثات لم نجد لها في غيره من كتب التراجم أو حتي كتب طبقات المحدثين نفسها. وفي الوقت نفسه لم نجد عند غيره أسماء أخرى لمحدثات وقعت وفاتهن في القرن الثامن إلا في حالات قليلة نادرة. ^(٤)

(١) تكرر هذا النموذج في تراجم النساء، راجع مثلاً، ١: ٤١٢، ٢: ٣٦، ٣: ٢٢٨، ٤: ٣٩، لكنه قلما ورد في تراجم الرجال. انظر مثلاً: ٣٢٩: ١.

(٢) الدرر الكامنة ١: ٥٤٥.

(٣) أيضاً، ٢: ٢٣٦.

(٤) أورد ابن الكيال: أبو بكر محمد بن أحمد (ت ٩٣٩) في كتابه: الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة والثقات، اسم محدثة لم ترد عند ابن حجر، مارست نشاطها بالقاهرة وتوفيت سنة ٧٨٥هـ، (انظر الكتاب المذكور ص ٤٤٩، نشر جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ، تحقيق عبدالقيوم عيدر بن النبي). وانظر مايلي من المقارنة بين الدرر الكامنة وكتاب الوفيات لتقي الدين ابن رافع.

* تراجم النساء وأنواعها في الدرر الكامنة :

بيد أن تراجم النساء في الدرر الكامنة لم تقتصر على من اشتغل منهن بالتحديث والرواية فحسب، بل اشتملت على تراجم لنساء بلغن في تعلم الحديث درجة عالية، وسمعن أو حصلن على إجازات عالية من كبار مشايخ العصر، لكنهن لم يجلسن مجلس المحدث، ولم يعلمن الحديث أو يروينه. (ولقد تجاهلت في دراستي هذا النوع من النساء اللاتي لم ينص ابن حجر - أو غيره - على أنهن اشتغلن بالتحديث والرواية، وما ذلك إلا لأن هذا البحث إنما يتعلق بالمحدثات اللاتي روين الحديث وعلمنه وشاركن بنصيب في الحياة العلمية والفكرية في العصر المملوكي، وما كان لذلك من أثر في أدب ذلك العصر).

ويمكننا أن نصنف ما أورده ابن حجر من أخبار هؤلاء «المحدثات» في الدرر الكامنة إلى صنفين :-

أولاً: التراجم: أي أنه يفرد ترجمة خاصة للمحدثة يعرض من خلالها كل ما وصله من أخبارها، وهو ينتهج في هذه التراجم نهجه في تراجم الرجال، فتأتي مرتبة وفق حروف المعجم.

ثانياً: الإشارات العابرة: وترد هذه الإشارات ضمن التراجم الأخرى للرجال أو النساء على السواء، وأغلب هذه الإشارات لا تعدو أن تكون مجرد ذكر لاسم المحدثه باعتبارها شيخة من شيوخ صاحب الترجمة، سمع منها أو أجازت له. وتنقسم هذه الأسماء بدورها إلى قسمين:

١ - أسماء وردت لها ترجمة بالكتاب.

٢ - أسماء لم ترد لها أي ترجمة أو تعريف.

وقد يذكر اسم المحدثه (سواء كانت من القسم الأول أو الثاني) أكثر من مرة كلما جاءت ترجمة لأحد تلاميذها.

وقد حصرت عدد المحدثات - من الصنفين في الدرر الكامنة - فوجدته يبلغ (١٧١)

مائة واحدى وسبعين محدثة،^(١) مما يدل على أن الكتاب المذكور يعد أكثر المصادر شمولاً واستيعاباً لتراجم المحدثات وما مارسه بعضهن من نشاط هائل في القرنين السابع والثامن الهجريين في تعليم أعلام العصر، والمبرزين فيه في كل علم وفن .
وربما كان تمييز كتاب الدرر الكامنة عن غيره من الكتب في هذا الباب راجعاً إلى المصادر التي استقى منها المؤلف مادة كتابه، ومن ثم فإن علينا أن نتوقف قليلاً أمام تلك المصادر .

* * *

(١) هذا بخلاف تراجم المحدثات التي أوردها في كتابه «معجم مريم»، ولم يورد بعضها في الدرر الكامنة .

* في مصادر الدرر الكامنة :

صدر ابن حجر كتابه «الدرر الكامنة» بمقدمة ضمنها المصادر التي اعتمد عليها في استقاء معلوماته عن أعلام القرن الثامن من الرجال والنساء . وذكر فيها أحد عشر كتابا من الكتب ، ألف بعضها بعض العلماء الذين عاشوا في ذلك القرن الثامن ، منهم عدد من شيوخ شيوخه وبعض معاصريهم ، وألف البعض الآخر عدد من شيوخه وبعض أصحابه الذين عاصروه في القرن التاسع .

يقول في مقدمة «الدرر الكامنة» عن مصادره : « وقد استمدت هذا الكتاب من :-

- أعيان العصر : لأبي الصفاء الصفدي .^(١)
- مجاني العصر : لشيخ شيوخنا أبي حيان .^(٢)
- ذهبية القصر : لشهاب الدين بن فضل الله (العمرى) .^(٣)
- تاريخ مصر : لشيخ شيوخنا قطب الدين الحلبي .^(٤)
- ذيل سير النبلاء : للحافظ شمس الدين الذهبي .^(٥)
- ذيل ذيل المرأة : للحافظ علم الدين البرزالي .^(٦)
- الوفيات : للعلامة تقي الدين ابن رافع .^(٧)
- والذيل عليه : للعلامة شهاب الدين ابن حجي .^(٨)
- وما جمعه صاحبنا تقي الدين المقریزی^(٩) في أخبار الدولة المصرية وخططها .
- ومعاجم كثيرة من شيوخنا .

(١) خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤) .

(٢) أبو حيان : محمد بن يوسف ابن حيان القرناطي النحوي (ت ٧٤٥) .

(٣) شهاب الدين ابن فضل العمرى (ت ٧٤٩) .

(٤) قطب الدين أبو محمد عبدالكريم الحلبي (ت ٧٣٥) .

(٥) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨) .

(٦) القاسم بن محمد البرزالي (ت ٧٣٩) .

(٧) تقي الدين أبو المعالي محمد بن رافع السلامي (ت ٧٧٤) .

(٨) أحمد بن حجي بن موسى السعدي (ت ٨١٦) .

(٩) أحمد بن علي المقریزی (ت ٨٤٥) .

- والوفيات للحافظ شمس الدين أبو الحسين بن أبيك الدمياطي. (١)
- والذيل عليه لشيخنا الحافظ أبي الفضل ابن الحسين العراقي. (٢). انتهى.
ومن الواضح أن ابن حجر قد جمع أهم المصادر التي تعينه على تأليف كتاب في تراجم أعيان القرن الثامن، وحرص على أن يكون مؤلفو هذه المصادر من الشهود العدول الذين عاصروا أصحاب هذه التراجم، أو ممن لحق بهم من ثقات المؤلفين والمصنّفين.
ولا شك أنه قد أفاد بتلك الكتب فائدة كبرى في الترجمة للرجال، أما في تراجم النساء فلم يصرح باستخدام بعض هذه الكتب إلا في مواطن محدودة للغاية (٣). على أن أكثر ما رجع إليه من تلك الكتب لجمع أخبار النساء إنما يتمثل في كتابين اثنين هما: كتاب الوفيات للعلامة تقي الدين ابن رافع، (٤) وذيل سير النبلاء للحافظ شمس الدين الذهبي. (٥)
ومن ثم نلاحظ أن ابن حجر العسقلاني لم يقتصر على استخدام كتب التاريخ والوفيات كمصادر لتراجم النساء في الدرر الكامنة، وإنما اعتمد على مصادر أخرى غير تلك الكتب، فما هي يأتري تلك المصادر؟.

إذا تأملنا في العبارة التي نقلناها توّأ من مقدمة الكتاب نجد مؤلفنا قد أشار إشارة عارضة إلى نوع آخر من المصادر التي اعتمد عليها، بخلاف الكتب التي ذكرها، فقال: «... ومعاجم كثيرة من شيوخنا». فلقد لاحظ ابن حجر أن اعتماده على الكتب وحدها لن يحقق له استيفاء سير الأعلام في القرن الثامن على الوجه الذي يبتغيه من الدقة والشمول والإتقان، فعمد إلى طائفة أخرى من الكتب لا تحظى بأهميتها عين الناقد البصير، وهي المعاجم والمشيخات التي خرّجها عدد من كبار الحقاظ لأنفسهم (أو خرّجوها لبعض مشايخهم) وأثبتوا فيها تراجم من تلقوا عليهم علم الحديث من الرجال والنساء.

(١) أبو الحسين أحمد بن أبيك الدمياطي (ت ٧٤٩).

(٢) الحافظ زين الدين عبدالرحيم بن الحسين (ت ٨٠٦).

(٣) استخدم ابن حجر في تراجم النساء من الكتب - حسب ما صرح به هو - مايلي: أعيان العصر للصفدي ٤: ٤٠٦ (موضع واحد)، تاريخ مصر للقطب الحلبي ٣: ٢٢٧ (موضع واحد)، ذيل المرأة للبرزالي ٢: ١٢٣، ٣: ٢٢٤، ٢٢٥ (ثلاثة مواضع)، ذيل الوفيات لأبي الفضل بن الحسين العراقي ٢: ١٢٧، ١٢٨، ٣: ٢٢٠ (ثلاثة مواضع).

(٤) راجع الدرر الكامنة: ١: ٣٦١، ٢: ١٢٠، ١٢١، ١٢٦، ٣: ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٨، ٣٨٦ (ثانية مواضع)، وقد أفاد ابن حجر في عدد من هذه المواضع الثانية بكتاب آخر هو «معجم ابن رافع».

(٥) انظر الدرر الكامنة ٢: ١٢٢، ١٢٩، ٣: ٢٢١، ٢٢٥، ٤: ٣٩٠، وأشار ابن حجر إلى أنه أفاد في بعض هذه المواضع بمعجم الذهبي، فقال عن بعض من أوردته في تراجمه من النساء: «وذكرها الذهبي في معجمه». (انظر مثلاً: ٣: ٢٢١، ٢٢٥).

والحق أن هذه المعاجم تبلغ أعلى درجات الصحة من الناحية العلمية، لأن مؤلفيها إنما يكتبون سير أناس اتصلوا بهم اتصالاً مباشراً بالسماع (أو اتصالاً قريباً بالإجازة)، وتلقوا العلم على أيديهم، وخالطوهم وتعرفوا على أخبارهم وأحوالهم ومناقبهم عن كثب.

ولا شك أن هذه «المعاجم الكثيرة» كانت أكثر عناية بإثبات تراجم المحدثات من الكتب التي تتناول شتى مناشط الحياة، ولا يمثل الحديث فيها إلا جانباً واحداً من جوانب متعددة، وبالتالي لا يجد مؤلفوها فسحة تتيح لهم العناية بأخبار المحدثات، اللهم إلا من اشتهر منهن شهرة واسعة، وأصبح الطلاب يشدون إليها الرحال من شتى البلاد والأقطار، لكن المعاجم - بسبب انحصار موضوعها في تراجم أهل الحديث - تفسح لمؤلفيها المجال لذكر ما تضيق الكتب العامة عن ذكره، فضلاً عن حرص أصحاب المعاجم على أن تستوعب معاجمهم تراجم كل من تلقوا العلم عنهم من الرجال والنساء وتستوفي أخبارهم.

وقد أفاد ابن حجر بهذه المعاجم فائدة كبرى في تأليف كتابه «الدرر الكامنة»، واستقى منها الكثير من الأخبار التي ضمنها تراجم الرجال والنساء على السواء، لكن اعتياده عليها في تراجم النساء كان أظهر وأوضح، ولذلك كثر ذكر هذه المعاجم كمصادر لتراجم المحدثات بصفة خاصة. وفيما يلي بيان بهذه المعاجم مرتبة حسب عدد ورودها في تلك التراجم.

- ١ - معجم حامد بن ظهيرة = أحد عشر موضعاً. (١)
- ٢ - معجم ابن رافع = عشرة مواضع. (٢)
- ٣ - معجم الذهبي = أربعة مواضع. (٣)
- ٤ - مشيخة العز ابن جماعة تأليف أبي جعفر ابن الكويك = ثلاثة مواضع. (٤)

(١) ١: ٤١٢، ٣٦٠، ٢: ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٨٩، ٢٣٦، ٣: ٢٢٥، ٢٦٨، ٤: ٣٨٥، ٤٠٤.

(٢) ١: ٣٦١، ٢: ١٢٠، ١٢١، ١٢٦، ٣: ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٨، ٣٨٦، ٤.

(٣) ٣: ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٥، ٤: ٣٩٧.

(٤) ٣: ٢٢٤، ٤: ٢٢٥، ٣٨٥.

٥ - معجم البرزالي = ثلاثة مواضع. (١)

٦ - مشيخة وجيهة الصعيدية الإسكندرانية، لتقي الدين ابن رافع = موضع واحد. (٢)

٧ - مشيخة زاهدة بنت محمد بن عبدالله الطاهري، للمقاتلي = موضع واحد. (٣)

ولم يكن يقتصر ابن حجر على ما ورد في معجم واحد من تلك المعاجم في جمع مادته، بل كان يجمع بين أكثر من معجم ويقارن بين ما كتبه مؤلفوها، لكي يثبت أصح الأخبار وأوثقها في تراجمه، فهو يقول مثلاً في ترجمة فاطمة بنت أبي بكر (بنت الزين): «سمع منها البرزالي، والذهبي، وابن رافع، وحدثوا عنها في معاجيمهم»^(٤)، ويقول في ترجمة نفيسة بنت ابراهيم بن سالم: «... وسمع منها البرزالي والذهبي وابن رافع، وذكروها في معاجيمهم، وحدثت كثيراً إلى أن ماتت في ١٥ جمادى الأولى سنة ٧٤٩هـ، أرخها ابن رافع»^(٥) وهذا يعني أنه - وإن كان قد اعتمد على المعاجم الثلاثة لتلاميذها المذكورين - فضل أن يستقي تاريخ وفاتها من كتاب الوفيات لابن رافع.

وإلى جانب اعتماده على الكتب التي ذكر عناوينها في مقدمة كتابه، والمعاجم التي أشار إليها في تراجمه، استقى ابن حجر بعض أخبار النساء مشافهة من بعض من تتلمذ عليهن،^(٦) كما اعتمد على كتب أخرى لم يرد لها ذكر في مقدمة الدرر الكامنة، ككتاب: من كان حياً من الشيوخ بحلب لمحمد بن يحيى بن سعد،^(٧) وهو من الكتب الضائعة التي لم نعثر لها على ذكر أو أثر.

كل ذلك يدلنا على أن ابن حجر لم يدع طريقاً يعينه على جمع أخبار المحدثات من مصادر أصيلة إلا وسلكه.

(١) ٣: ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٥.

(٢) ٤: ٤٠٦، وواضح أن ابن حجر قد أفاد من هذه المشيخة، لأن ابن رافع لم يترجم لوجيهة في كتابه الوفيات.

(٣) انظر ٢: ١١٢ - ١١٣.

(٤) ٣: ٢٢٣.

(٥) ٤: ٣٩٧.

(٦) انظر قوله عن إحدى المحدثات: «حدثنا عنها شيخنا ابن برهان الدين الشامي». (٣: ٢٢٧).

(٧) انظر ٢: ١٢٩، وراجع ترجمة مؤلف الكتاب في الدرر.

* مقارنة بين ابن حجر وبعض مصادر ه :

لن نتاح لنا هذه المقارنة إلا بصورة جزئية، لأننا لم نعرث إلا على كتاب واحد فحسب من تلك التي ذكرها ابن حجر في مقدمة كتابه واستخدمها في تدوين أخبار المحدثات، ونعني به كتاب «الوفيات» للعلامة تقي الدين أبي المعالي محمد بن رافع السلامي. (١) أما بقية الكتب والمعاجم التي اتخذ منها مصادر لتراجم النساء فقد فقدت أو ظلت مخطوطة في بطون المكتبات تنتظر من يخرجها على الناس.

وكان ابن رافع قد جعل كتابه «الوفيات» ذيلًا لتاريخ البرزالي، فاشتملت وفيات ابن رافع على تراجم من توفي من الأعلام في الفترة من سنة ٧٣٧هـ إلى ٧٧٤هـ، وهي فترة من الفترات التي عني ابن حجر بتراجم وفياتها لوقوعها في أواسط القرن الثامن الذي ترجم لأعيانه في كتابه «الدرر الكامنة».

ولقد أفاد ابن حجر بوفيات ابن رافع فائدة كبيرة في تراجم الرجال والنساء «فقد اقتبس منه في ١٥١ موضعاً، وصرح بنقله عنه، كما اقتبس منه في ٦٠ موضعاً غيرها لم يصرح فيها بنقله عنه». (٢)

وقد استوعب ابن حجر تراجم المحدثات التي ترجم لها تقي الدين ابن رافع، بل وزاد عليه بعض التراجم.

وقد لاحظت أن ابن حجر أغفل ذكر سبع من النساء اللاتي وردت ترجمتهن في كتاب الوفيات، (٣) وحاولت معرفة سبب هذا الإغفال فوجدت أن هناك سمة مشتركة تجمع بين خمس منهن: وهي أن أسماءهن لم تذكر إلا في وفيات ابن رافع وحدها، وأن تراجمهن لم ترد في المصادر التي اعتمدها ابن حجر وجعلها أمامه ليستمد منها مادة كتابه. أما الشيخان الباقيتان فقد ذُكرت كل منهما - على حدة - في كتاب لم يتخذ ابن حجر مصدرًا من مصادر

(١) طبع الكتاب مؤخرًا (سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) في بيروت بتحقيق صالح مهدي عباس.

(٢) صالح مهدي عباس، مقدمة كتاب الوفيات لتقي الدين بن رافع، ص ٩ وما بعدها.

(٣) انظر، الوفيات، ١ : ١٨٥ - ١٨٦، ١٩٧، ٣٠٠، ٣٤٥، ٣٤٦، ٢ : ٢٥٦، ٢٥٧.

كتابه. (١)

وربما كان هذا يعني أن مؤلف الدرر الكامنة كان يتبع منهجاً صارماً في إثبات أسماء المحدثات من غير المشهورات، إذ اشترط أن ترد تراجمهن في أكثر من مصدر، فإن لم ترد إلا في مصدر واحد ضرب صفحاً عن الإتيان بترجمة لهن في كتابه حتى ولو كان مؤلف ذلك المصدر الوحيد يحظى بثقته الكاملة. (٢)

ويؤكد هذا الاحتمال ما نلاحظه في التراجم التي اعتمد ابن حجر فيها على كتاب «الوفيات» لابن رافع كمصدر رئيسي، فلقد أضاف إلى هذه التراجم إضافات لا توجد في الوفيات، وفيما يلي بعض المقارنات بينهما:

(١) راجع: وفيات ابن رافع، هوامش ١: ١٩٧ في ترجمة فاطمة بنت زين العابدين عبدالرحمن، وقد أشار محقق الكتاب إلى أن ترجمتها وردت في كتاب حوادث الزمان وأبنائه لشمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبدالعزيز الجزري (ت ٧٣٩) نسخة مكتبة المجمع العلمي العراقي (رقم ٥٦٥)، وانظر أيضاً، هوامش ١: ٢٠٩ في ترجمة ضيفة ابنة المعدل شمس الدين محمد بن عبدالواحد بن اسماعيل، وقد أشار المحقق إلى أن ترجمتها وردت في كتاب «ذيل العبر» لولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبدالرحمن العراقي (ت ٨٢٦)، نسخة مكتبة المجمع العلمي العراقي رقم (٥٨٣).

(٢) وصف ابن حجر الشيخ تقي الدين بن رافع في صدر كتابه بـ«العلامة».

المقارنات

الوفيات	الدرر الكامنة
<p>«وفي ليلة تاسع عشر من شهر رمضان منها (٧٣٢) توفيت أم الحسن فاطمة وتدعى ست العجم، ابنة المحدث أبي الوليد محمد بن محمد بن جبريل بن أحمد بن علي بن خالد الدربندي بالقاهرة، ودفنت من الغد بالقرافة. سمعت من المعين أحمد بن علي الدمشقي، وإسماعيل ابن عزون، وعبدالله بن علاق، والنجيب عبداللطيف والعزيز ابني عبدالمنعم الحراني، وأبي بكر محمد بن أحمد القسطلاني وجماعة، وحدثت، ومولدها في مستهل جمادي الآخرة سنة إحدى وستين وستائة، وكانت محبة للحديث وأهله، سهلة في التحديث، رضية الخلق، وافترقت في آخر عمرها». (٢)</p> <p>«وفي المحرم فيها ٧٦٢هـ توفيت زينب ابنة المحدث شمس الدين محمد بن إبراهيم بن غنائم ابن المهندس». (٤)</p>	<p>(أ) «فاطمة بنت محمد بن محمد بن جبريل ابن أبي الفوارس ابن أحمد بن علي بن خالد أم الحسن الدربندي أبوها، تدعى ست العجم، سمعت من النجيب والعز الحرائين، ومن المعين الدمشقي وابن عزون وابن علاق، وعندها عنه مشيخة تخريج ابن الجبيلي، والمحنة والرد على الأهواء لمحمد بن جرير وغير ذلك، وسمعت علي أبي المحاسن العموري، وأجاز لها الكرمانى وآخرون، وكانت مكثرة سماعاً وشيوخاً، ذكرها ابن رافع، وأرخ وفاتها في تاسع عشر من شهر رمضان سنة ٧٣٧، ولها ست وسبعون سنة». (١)</p> <p>(ب) «زينب بنت محمد بن إبراهيم بن غنائم المعروف والدها بابن المهندس أسمعت علي التقى سليمان وأرخ ابن رافع وفاتها في المحرم سنة ٦٧٢». (٣)</p>

(١) الدرر : ٣ : ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) وفيات : ١ : ١٧٥ - ١٧٦ .

(٣) الدرر : ٢ : ١٢١ .

(٤) وفيات : ٢ : ٢٣٦ .

ولعل هذه المقارنة تبين لنا أن ابن حجر بدا أكثر حرصاً على إثبات مسموعات الشيخات على شيوخهن، مما جعله ينظر في مصادر أخرى ليستمد منها هذا الجانب الذي لم يكن يُعنى به صاحب الوفيات كثيراً، غير أن ابن حجر لم يشأ أن يثبت بعض الأخبار التي أوردها صاحب كتاب الوفيات عن مناقب المحدثّة الأولى وأحوالها واكتفى بالإشارة إلى مصدره وهو كتاب الوفيات نفسه.

وإذا كان ابن حجر قد استوعب ما في وفيات ابن رافع من تراجم النساء اللاتي وقعت وفاتهن بين سنتي ٧٣٧ و ٧٧٤، عدا من استبعدهن لشروط منهجية عامة وضعها والتزم بها في تصنيف كتابه، فقد أثبت تراجم لمحدثات توفين في الفترة نفسها، ولم يردهن ذكر في كتاب الوفيات.^(١)

نخلص من هذه المقارنة إلى أن كتاب «الدرر الكامنة» يعد أكثر دقة، وأوفى تحريماً في إثبات أسماء المحدثات وإيراد تراجمهن، كما يعد أكثر شمولاً واستيعاباً من مصدره المفردة نفسها.

غير أن كتاب الوفيات يشتمل - أحياناً - على بعض التفاصيل التي لا ترد في الدرر الكامنة، من ذلك مثلاً أن ابن رافع يولي اهتماماً خاصاً لتاريخ وفاة المحدثات، وهذا أمر طبيعي، لأنه إنما يرتب أبواب كتابه وفصوله وفقاً لتاريخ الوفاة، فالكتاب سجلّ للوفيات، لكن ابن حجر لا يلقي - أحياناً - بالآ إلى هذه النقطة.^(٢)

كما يعنى ابن رافع بتعيين موطن المحدثّة، وهو أمر لا يحظى كثيراً بعناية ابن حجر، الأمر الذي يجعل من الضروري على الباحث أن يستعين بكتاب الوفيات لإكمال ما نقص من كتاب الدرر في هذا الصدد.^(٣)

(١) انظر مثلاً: أمامة بنت عبدالسلام (ت ٧٤٤)، الدرر ١: ٤١٢، فاطمة بنت محمد بن محمد بن اسماعيل، ٣: ٢٢٧ (ت ٧٤٧). مؤنسة بنت صبيح بن عبدالله، ٤: ٣٨٥ (ت ٧٤٩). نفيسة بنت إبراهيم بن سالم بن سعيد (ت ٧٤٩) ٤: ٣٩٧، وهي شيخة ابن رافع، لكنه لم يورد ترجمتها في الوفيات وإنما ترجمها في معجمه كما أشار ابن حجر.

(٢) راجع الدرر مثلاً، ٢: ١١٠، ١١٨، ١١٩، ٢٣٧، ٣: ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٨، ٣٨٥، ٣٩٧.

(٣) قارن مثلاً: وفيات ابن رافع، ٢: ٢٠٤، ٢٩٦، والدرر الكامنة ٣: ٢٢٠، ٢٢١.

ويحرص ابن رافع أيضاً على العناية بجزئية يغفلها صاحب الدرر الكامنة أحياناً، وهي بيان ما إذا كانت المترجم لها قد اشتغلت بالتحديث أم لا، فقد كان ينص في تراجم المحدثات بقوله «حدثت»، وقد أغفل ابن حجر مثل هذه الإشارة في ثلاث من تراجم النساء التي اشترك مع ابن رافع في ذكرهن، فلم يشر إلى أنهن قد حدثن. ^(١) وهذا نقص آخر يمكن استيفاؤه من كتاب «الوفيات»

كل هذا يدلنا على ما لكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي الشهير بابن حجر العسقلاني من قيمة كبرى في دراسة ظاهرة كثرة المحدثات في العصر المملوكي وإسهامهن في الحياة العلمية والأدبية لذلك العصر، فهو الكتاب الذي يتعين على المدارس أن يجعله أمامه ويتخذ منه مصدراً رئيساً، لما يتصف به من دقة وشمول.

ولا يعني هذا - بحال - أن نطرح المصادر الأخرى جانباً، بل لابد من الرجوع إليها والاعتماد عليها، لا سيما في استيفاء ما بها من تفاصيل لم ترد بكتاب «الدرر الكامنة».



(١) انظر تراجم: أمنة ابنة الموفق عبدالرحمن (الدرر: ١: ٤١٣، الوفيات: ١: ٤١١) وفاطمة ابنة نصر الله (الدرر: ٣: ٢٢٨، الوفيات: ٢: ١١٩)، وقوام ابنة عبدالله (الدرر: ٣: ٢٥٧، الوفيات: ١: ٤١٠ - ٤٤١) وقد شك ابن رافع في أن تكون وثناء بنت عبدالرحمن قد حدثت ولكن ابن حجر أثبت تحديثها، (الوفيات: ٢: ٣٧٢ - ٣٧٣، الدرر: ٤: ٤٠٧).